دراسات

شهاب الدين الحسيني

باحث من العراق

المصلحة الإسلامية في منهج أئمة أهل البيت (ع): من الإمام الحسن الى الإمام الرضا (ع)

موقف الامام الحسن(ع) من معاوية

من نقـاط الاشتـراك بين السنةوالشيعة وبقية المـذاهب ان الحسن(ع) اختيـر خليفة من قبل خيـار الصحـابة والتابعين، وبهـذاالاختيـار وجب طاعتـه من قبل جميع المسلمين وفي جميع الامصـار، وكل من رفض طاعتـه يعتبـر عاصيـا شاقا لوحـدة المسلمين، ويجب على المسلمين اعادتـه للطاعة، وقد تمرد معاوية على خلافة الامام فجهز الامام جيشا لاعادته للطاعة، وللحفاظ على وحدة الدولة؛ لكي لاتتمزق الى دولتين: الاولى في العراق والثانية في الشام، ولكن الظروف لم تساعد على اخمـاد التمـرد، وقـد تبدلت لتكون في صالح معاوية، او على الاقل استمرار القتـال دون حسم لصـالح القضية الاسـلامية الكبرى، وقد وجد الامام الحسن(ع) في ايقاف القتال والقبول بالصلح مصلحة عليا للاسلام وللمسلمين ووحدة الدولة والامة الاسلامية فآثر الصلح لانه المسنجم مع المصلحة العليا والوحدة الاسلامية.

واهم مصاديق المصلحة العليا:

اولا: وحدة الدولة والامة

قال الامام الحسن(ع): «الا وان ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة».

فالقتال، وحسب الظروف، لم يكن في صالح الدولة التي يقودها الامام؛ لأنّ استمراره سيؤدي الى اراقة الدماء دون حسم، أو توافق، ولكن المستفيد هو القوة المتمردة التي ستستولي على الدولة دون قيود وشروط، او يؤدي القتال الى ضعف القوتين، وبالتالي تحرك الدول الكافرة لحسم الموقف لصالحها، او قيام دولتين ضعيفتين، وفي جميع الأحوال فانّ الأمر يؤدي الى ضعف الدولة والوجود الاسلامي، وكلاهما خسارة فادحة.

ثانياً: حقن الدماء

قال الامام(ع): «وقد رأيت ان حقن الدماء خير من سفكها، ولم ارد بذلك الا اصلاحكم وبقاءكم»[1].

وقال أيضاً: «ان معاوية نازعني حقا هو لي، فتركته لصلاح الامة، وحقن دمائها.. ورأيت ان حقن الدماء خير من سفكها، واردت صلاحكم وان يكون ما وصفت حجة على من كان يتمنى هذا الامر»[2].

وقد كانت شروط الصلح مصداقا من مصاديق المصلحة الاسلامية العليا؛ حيث جاء فيها: «ان الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله، في شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم، وعلى ان اصحاب علي وشيعته آمنون على انفسهم واموالهم ونسائهم واولادهم»[3].

والصلح مقدمة للحفاظ على الصفوة الخيرة من المصلحين والمغيرين، وعلى الحفاظ على حياة الواعين الى الدين والرسالة، وهذا هو الظاهر من كلام الامام(ع) حيث يقول: «اني خشيت ان يجتث المسلمون عن وجه الارض، فأردت ان يكون للدين ناعي»[4].

وقال لحجر بن عدي: «ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك وما

فعلت الا ابقاء عليك».[5]

ومن يتابع الاحداث يجد ان اوضاع المسلمين الداخلية قد هدأت وان المسلمين قد كانوا احرارا اكثر من عشر سنين، وقد كان معاوية يستجيب لمطالب الامام الحسن(ع) في الاعفاء عن هذا الشخص او ذاك، وهو الظاهر من الوقائع التاريخية.[6]

ولم يقدم نظام معاوية على قتل احد الا بعد رحيل الامام الحسن الى الملأ الاعلى، اما في حياته فلن يتجرأ على قتل او سجن احد من المعارضين، وخصوصا من الشيعة انصار الامام.

ورفض الامام الاستجابة لطلب معاوية في قتال الخوارج، موضحا سياسته في التعامل مع الوجودات الاسلامية المخالفة له، ومبينا المصلحة وراء صلحه، ومما قاله: «لو آثرت ان اقاتل احدا من اهل القبلة لبدأت بقتالك، فاني تركتك لصلاح الامة وحقن دمائها».[7]

وفي رواية اخرى: «والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين»، وما احسب ذلك يسعني، فكيف أن اقاتل قوما انت اولى بالقتال منهم».[8]

وفي جميع الاحوال والظروف فان الصلح قد تم على اساس شروط وضعت على اساس خدمة الاسلام واهدافه العليا الآنية والبعيدة، وخصوصا اذا تحولت الى واقع ملموس وطبقت من قبل النظام الحاكم وتم الوفاء بها.

موقف الامام الحسين(ع) من معاوية

تابع الامام الحسين(ع) اخاه الامام الحسن(ع) في صلحه مع معاوية، وطبقا للشروط الموضوعة، وقد هدأت الاوضاع الداخلية، وبقي الامام الحسين(ع) على عهده لم يعارض معاوية الا معارضة سلمية، ورفض جميع المطالب التي تدعوه الى الخروج العسكري على حكومة معاوية، وكتب الى من دعاه للثورة: «اني لأرجو أن يكون رأي اخي رحمه الله في الموادعة ورأيي في جهاد الظلمة

رشدا وسداداً، فالصقوا بالارض واخفوا الشخص واكتموا الهوى واحترسوا من الاظـاء مـا دام ابن هنـد حيـاً، فـان يحـدث بـه حـدث وانـاحي يأتكم رأيي ان شاءالله».(٩)

وكتب الى معـاوية كتابـاً جاء فيه: «وما اردت لك محاربة، ولا عليك خلافاً»، وفي رواية اخرى: «أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه انه انتهت اليك عني امور، لم تكن تظنني بهـا، رغبة بي عنهـا، وان الحسنـات لايهدى لها، ولايسدد اليها الا اللـه تعـالى، واما مـا ذكـرت انـه رقى اليك عني، فانمـا رقاه الملاقون المشاءون بـالنميمة، المفـرقـون بين الجمع، وكـذب الغـاوون المارقون، ما اردت حربا ولا خلافا..»(١٠)

لم يتخـذ الامـام اي موقف مسلح لانه يخالف المصلحة الاسلامية العليا، لان المـوقف المسلح سيـؤدي الى قتلـه او أسره، وستفقد الامة علماً من اعلام الدين بحـاجة اليـه في تلك الظـروف الحسـاسة، وسيسيطـر معـاوية على الحكم بـدون مـراقب ومعارض يوقف الانحرافات او يصلح الامور نحو الوضع الافضل، فبقتله يخسـر المسلمـون القـدوة الصالحة، ولهذا فليس من الصالح خروجه بالسيف ولا مصلحة في ذلك، ولهـذا رفض الخـروج المسلح، وان وجـد قاعـدة مستعـدة له، ورفض الثـورة لمصلحة لايعني السكـوت امـام الانحـراف، فقـد استمـر الامـام بمعـارضتـه للنظام معارضة حقيقية ضاغطة، أوقفت كثيرا من الممارسات السلبية والانحرافات الواضحة المعالم، سواء كانت صادرة من رأس النظام او من اجهزته التنفيذية، وقد عاش الامام هدنة حقيقية اراح فيها الامة من شبح الحرب الداخلية، التي لاتحقق نصـرا على المـدى القـريب او البعيـد، واوقف اراقة الـدمـاء التي لامصلحة في اراقتها في تلك المرحلة الزمنية التي حكمها معاوية.

المرحلة الزمنية التي حكمها معاوية

من ثـوابت الشريعة والمنهج السياسي الاسلامي ان يكون الامام او الخليفة او

الحـاكم الاسلامي فقيها عادلا كفوءا في تدبير الامور،[11] وهذا الامر محل اتفاق علمـاء الشيعة والسنة، وبـالـذات العدالة فانها شرط اساسي، وخصوصا اذا كانت الامة قـادرة على الاعتـراض وابداء الرأي، وعلى هذا الاساس، فان تولي الفاسق وتسلطـه على رقـاب المسلمين خـلاف للمصلحة الاسلامية، لانه لايسعى لتقرير المفـاهيم والقيم الصـالحة في الـواقع، ولايكـون المتـولي حريصـا على مصلحة الاسـلام العليـا، ومن هنـا ينبغي عـدم الـركـون لمثل هذا الحاكم وتبديله بغيره، والتبـديل محل اتفـاق جميع المسلمين، ولكنهم اختلفـوا في اسـاليب التبديل والعزل من حيث تأثيراتها على الاوضاع العامة وخصوصا في مسألة اراقة الدماء.

والامـام الحسين(ع) حينمـا قـاد نهضتـه المباركة اراد تغيير المفاهيم والقيم الجـاهلية التي سـادت في عصـره، وتغييـر الحـاكم الـذي تولى الحكم عن طريق الارهـاب، واعلن عن انحـرافـه عن الاسـلام عقيـدة، وعن الاسلام سلوكاً، وقد اعلن عن كفره صراحة حينما تمثل ببعض الابيات ونفىٰ فيها الوحي والتنزيل كما ورد في جملة من المصادر.[12]

وقـد صرح الامام بانه نهض من اجل اصلاح الاوضاع والسير على نهج جده وابيه، وان نهضته فتح: «اما بعد فانه من لحق بي منكم استشهد ومن تخلف لم يبلغ مبلغ الفتح».[13]

وكـان لـدم الامام الدور الاكبر في ايقاف انحراف الحاكم او تحجيمه، حيث لم يستطع الاستمـرار في تآمـره على المنهج الاسـلامي، وقـد يصح القـول؛ ان الحـاكم لم يمنح الامـام اي فـرصة لاتخاذ موقف آخر، فقد خيره بين البيعة وبين القتل.

ومع هـذا المـوقف الا ان المتتبع لحـركة التـاريخ يجـد ان اعـدادا كبيـرة من المـوالين الى الامـام الحسين(ع) كانـوا في مقـدمة الجيش دفاعا عن الدولة وعن ثغور المسلمين.

من سيرة الامام علي بن الحسين(ع)

على الرغم من اشتراك الجيش الاموي في قتل ابيه الا ان هذه الواقعة لم تمنع الامام من الانطلاق في آفاق المصلحة الاسلامية العليا، فقد عرف عنه انه كان يدعو للجيش بالنصر والظفر، لان انتصاره سيكون انتصارا للاسلام لا لشخص الحاكم، وسيكون انتصارا للمفاهيم والقيم الاسلامية بتقريرها في واقع الشعوب المنضوية تحت لوائه.

وقد اشتهر عنه انه انقذ عبدالملك بن مروان من تهديدات ملك الروم، الذي استغل حاجة المسلمين الى النقد لاذلالهم، فاقترح عليه خطة جديدة للنقد انقذت المسلمين من التبعية الاقتصادية.(١٤)

ومن مصاديق الانطلاق في آفاق المصلحة والوحدة الاسلامية ان الامام لم يفكر باللجوء الى دولة كافرة هروبا او خلاصا من ظلم واضطهاد الامويين.

وفي علاقاته داخل المدينة كان لاينقطع عن الاعمال والمشاريع العامة كصلاة الجماعة وصلاة الجمعة وصلاة العيدين(١٥)، فهو يتحرك في اطار المشتركات بينه وبين الآخرين، ويسعى لتوحيد الصفوف ولو ظاهراً من خلال المشاريع أو العبادات التي تُؤدّى جماعة.

من سيرة الامام محمد الباقر(ع)

كان الامام يوجه اتباعه وانصاره الى اقامة العلاقات مع المخالفين من اتباع السلطان، أو من اتباع المذاهب الاخرى، ومسايرتهم في نقاط الاختلاف، لكي تكون المظاهر واحدة لاتوحي بالتمزق والتشتت، وكما يقول: «خالطوهم بالبرانية».(١٦)

وكان يدخل في حوار هادىء مع الفقهاء من مختلف المذاهب والاتجاهات للوصول الى نقاط الاشتراك، والتوجه منها الى العمل المشترك من اجل المصلحة الاسلامية العليا، وكانت له علاقات وثيقة معهم كعبدالله بن الازرق وقتادة بن

دعامة البصري وعبدالله بن معمر الليثي.(١٧)

ومن اجل الحفاظ على سلامة العقيدة وسلامة العلاقات الاجتماعية والمذهبية، ومن اجل غلق الثغرات امام المتربصين كان يحارب الغلاة الذين لايحتمل هدايتهم ومنهم المغيرة بن سعيد العجلي.(١٨)

وحينما شددت السلطات الاموية على حركة الامام بملاحقة ومتابعة زائريه والداخلين عليه، كان ينهى بعضهم من الدخول عليه حفاظا عليهم، وان كانوا يخالفونه في الرأي والفتوى، ومنهم الامام «ابو حنيفة»، وهو الذي يقول: «اتيته فسلمت عليه، فقعدت اليه فقال: «لاتقعد الينا يا اخا العراق فانكم قد نهيتم عن القعود الينا».(١٩)

وكان يسدد الحاكم نحو الصلاح ويبدي نصائحه وتوجيهاته القيمة لكي تكون افكاره وممارساته منسجمة مع الخط العام والاسس العامة للرسالة الاسلامية، وكان عمر بن عبدالعزيز محط نظر الامام لاستجابته للنصائح والارشدات المنطلقة من الامام ومن نصائحه قوله: «واتق الله عز وجل يا عمر، وافتح الابواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم ورد المظالم... ثلاث من كن فيه استكمل الايمان بالله، «فجثاعمر على ركبتيه ثم قال: ايه يا اهل بيت النبوة» فقال: يا عمر: من اذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، واذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ومن اذاقدر لم يتناول ما ليس له».(٢٠)

وايمانا من عمر باخلاص الامام وتقديمه للمصلحة العليا على غيره كان يبعث عليه ليستشيره في بعض اموره.(٢١)

من سيرة الامام جعفر الصادق(ع)

كان الامام الصادق(ع) يحث انصاره واتباعه على المشاركة في صلاة الجماعة والجمعة التي تقام من قبل الولاة حفاظا على الالفة والاخوة، وتحقيقا للوحدة، وهي ممارسة العبادة جماعة فيقول: «من صلى معهم في الصف الاول

كان كمن صلى خلف رسول الله (ص) في الصف الاول».[٢٢]

وقال ايضا: «ما من عبد يصلي في الوقت ويفرغ، ثم يأتيهم ويصلي معهم وهو على وضوء الا كتب الله له خمسا وعشرين درجة».[٢٣]

وكان يدعوهم الى تعميق العلاقات مع المخالفين، ومشاركتهم في آمالهم وآلامهم، حيث يقول: «كونوا لمن انقطعتم اليه زينا ولاتكونوا عليه شيناً، صلوا عشائرهم وعودوا مرضاهم واشهدوا جنائزهم ولايسبقونكم الى شيء من الخير فأنتم اولى به منهم».[٢٤]

وقا: «اوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الامانة.. صلوا عشائرهم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وادوا حقوقهم، فان الرجل منكم اذا ورع في دينه وصدق الحديث وادى الامانة وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري فيسرني ذلك ويدخل علي منه السرور وقيل هذا ادب جعفر».

وكانت علاقاته مع ائمة المذاهب قائمة على المحبة والمودة والاحترام المتبادل، وفي ذلك قال مالك بن انس: «كنت ادخل الى الصادق جعفر بن محمد، فيقدم لي مخدة، ويعرف لي قدرا، ويقول: يا مالك اني احبك، فكنت اسر بذلك واحمد الله عليه».[٢٥]

وعلاقاته مع ابي حنيفة وسفيان الثوري علاقات متينة قائمة على اساس التعاون والتآزر من اجل تحقيق الاهداف المشتركة العليا، ولم يحدث تنافر ولاتباعد بين اتباعهما، وكانوا جميعاً متوجهين نحو الآفاق العليا تتقدم خطاهم مصلحة الاسلام.

ومن اجل انهاء مظاهر الاضطراب الفكري والبلبلة العقائدية وقف الاما موقفا حازما تجاه الغلاة فحاربهم ولعنهم.[٢٦]

و كان ينهى انصاره عن توسيع دائرة الخروج المسلح على النظام، ويجعله محصورا بفئة معينة لادامة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولايقاف انحراف

الحكـام بهـذه الحـدود وضمن المصلحة الاسـلامية العليـا، ولايدعو الى تكثيف الجهاد المسلح لانه قد يخرج عن حدود المصالح العليا.

قـال(ع): «كفـوا السنتكم والزموا بيوتكم، فانه لايصيبكم امر تخصوّن به ابدا ولاتزال الزيدية لكم وقاء ابدا».(٢٧)

وكـان ينصح الحكـام بمـا هو صالح لخدمة المصلحة العامة، وكان لاينظر الى شخص الحاكم، فليس المهم ان يحكم فلان او فلان او الامام، ولكن المهم تطبيق المفـاهيم والقيم الاسـلامية في الـواقع، فكـان يقـول للحـاكم العباسي المنصور: «نحن لك انصـار واعوان ولملكك دعائم واركان، ما امرت بالمعروف والاحسان، وامضيت في الرعية احكام القرآن، وارغمت بطاعتك انف الشيطان».(٢٨)

ومن حرص الامام على سلامة ارواح المسلمين وان كانوا مخالفين للامام او معادين له، سأله محمد بن قيس: عن الفئتين من اهل الباطل ابيعهما السلاح، فقال: بعهما ما يمكنهما: الدرع والخفتان والبيضة ونحو ذلك».(٢٩)

من سيرة الامامين: موسى الكاظم وعلي الرضا(ع)

على الـرغم من ظـروف الارهاب التي احاطت بالامام موسى الكاظم(ع) من مـلاحقة ومضايقة وسجن وتهديـد بـالقتل، الا ان الامـام كـان ينطلق على ضـوء المصلحة الاسلامية، لم ينقطع عن الاحداث وعن المواقف الوحدوية، كالعبادات التي تـؤدى جمـاعة، فكـان يتهيـأ للمشـاركة في صلاة الجمعة منذ يوم الخميس، وفي رواية كـان يقـول لاصحابـه: «انكم تتسابقون الى الجنة على قدر سبقكم الى الجمعة».(٣٠)

وكـان الامـام علي الـرضـا(ع) كثيـر النصح للحاكم العباسي المأمون بما فيه صـلاح الاسـلام والمسلمين، فقـد صـدرت منـه توجيهـات قيمة في كيفية ادارة البلـدان المفتوحة،(٣١) وبما ينسجم مع المصلحة الاسلامية العليا، وللحيلولة دون حدوث تصدع في الجبهة الداخلية.

ومما قاله للمأمون: «اتق الله في امة محمد، وما ولاّك من هذا الامر ونصبك به، فانك قد ضيعت أمور المسلمين، وفوضت ذلك الى غيرك»[٣٢].

ومن اجل المحافظة على وحدة الدولة الاسلامية ومنعها من التفكك والتصدع بفتن داخلية نابعة من حب التسلط وحب الزعامة، كان ينصح المأمون ويرشده الى اتخاذ الموقف المناسب تجاه الاحداث والاشخاص، فقد اخبره بان هنالك مؤامرة لقتله تدبر له في الخفاء، بعد ان اطلع الامام على تفاصيلها، وحينما قام المأمون بقتل الفضل بن سهل حدثت اضطرابات، فسعى الامام الى تهدئتها وارجع الغاضبين الذين تجمعوا امام دار المأمون.

التفاوت بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم، والدعوة الى جعل المصلحة الاسلامية العليا ووحدة المسلمين هي الحاكمة على الافكار والعواطف والممارسات، وكانوا يوجهون انصارهم نحو الآفاق العليا المشتركة والتعالي على الاطر الضيقة، والتعامل مع الفواصل في حدودها الجزئية، التي لاتمنع من اللقاء والاجتماع، وقد شهد لهم القاصي والداني بالاخلاص والنصيحة للدين وللدولة وللمسلمين.

الهوامش:

١ – كشف الغمة: ١٧٠.

٢ – انساب الاشراف ٣ : ٤٣.

٣ – الفتوح ٤ : ٢٩٣.

٤ – بحار الانوار ١٠:١٠١.

٥ – شرح نهج البلاغة ١٦:١٥.

٦ – شرح نهج البلاغة ١٦:١٩٥.

٧ – الكامل في التاريخ ٣:٤٠٩.

٨ – العقد الفريد: ١:١٨١.

٩ – انساب الاشراف ٣:١٥٣.

١٠ – مختصر تاريخ دمشق ٧:١٣٧.

١١ – الاحكام السلطانية: ٦، روضة الطالبين ٧:٢٦٢،مآثر الاناقة في معالم الخلافة ١:٣٩. مغني المحتاج ٤:١٣٠، نظرية الاسلام وهديه: ٥٧، الاسلام واوضاعنا السياسية:١٤٦.

١٢ – المنتظم ٥:٣٤٣، البداية والنهاية ٨:١٩٢، شذرات الذهب ١:٦٩.

١٣ – بحار الانوار ٤٤:٣٣٠.

١٤ – مختصر تاريخ دمشق ١٧:٢٣٠.

١٥ – سير اعلام النبلاء ٤:٣٩٧.

١٦ – الكافي ٢:٢٣٤.

١٧ – اعيان الشيعة ١:٦٥٣.

١٨ – شرح نهج البلاغة ٨:١٢١.

١٩ – مختصر تاريخ دمشق ٢٣:٨٣.

٢٠ – الخصال ١:١٠٤.

٢١ – مختصر تاريخ دمشق ٢٣:٧٧.

٢٢ – الهداية: ١٠.

٢٣ – المحجة البيضاء ١:٣٤٣.

٢٤ – الكافي ٢:٢١٩.

٢٥ – بحار الانوار ٤٧:١٦.

٢٦ – مناقب آل ابي طالب ٤:٢٣٩.

٢٧ – الكافي ٢:٢٢٥.

٢٨ – بحار الانوار ١٠:٢١٨.

٢٩ – تحف العقول: ٢٧٩.

٣٠ – الشافي ٢:١٩.

٣١ – عيون اخبار الرضا ٢:١٦٠.

٣٢ – بحار الانوار ٤٩:٨٤.